أهميَّة توظيف الوسائل التكنولوجية في تربية الأطفال

عبد الله لالي *

يقول علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – فيما يُنسب إليه(١):
"لا تُكرِهوا أولادكم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم".

إنَّه تَحدٍّ كبير تواجهه الإنسانية اليوم بين المحافظة على الأساليب والوسائل التربوية القديمة، والتي يمكن التحكم في أغلبها نسبيًا، ولها نتائج معروفة ومدروسة ومتوقعة؛ وبين الوسائل والأساليب التكنولوچية الحديثة المغرية، والمتسارعة في تطوُّرها بشكلٍ رهيب، ويصعب التحكُّم فيها وإدارتها بغير مخاطر في مجال تربية النشء وإعداده إعدادًا سويًّا وفاعلًا.

وهل يمكن تجنُّب ما أصبح يُعرف اليوم بالقرية العالمية، والانعزال عنها والعيش في قوقعة بعيدًا عن صخبِ العالم وجديدِه..؟

كثير من النَّاس يميلون إلى الركون إلى كلِّ ما هو قديم وثابت؛ لأنَّه يوحي لهم بالطمأنينة والسَّكِينة ويجنِّبهم كلّ مغامرة غير محسوبة النتائج أو مخاطرة لا تُعرف نهايتها، فالاطمئنان إلى القديم والركون إلى العادة أكثر أمنًا وسلامةً من الانغماس في المجهول وإن كان يَعِد بالكثير.. !

الأمر اليقيني في حياة الإنسان أنّ الزمن يغيّرنا بشكل جذري؛ شئنا أم أبينا، وبعد جيلٍ أو جيلين من النَّاس سنكون أمة أخرى وإن تظاهرنا بالسُّكون والثبات، فإن لم نَسِر في أوَّل القافلة ونتصدَّرها فإنّ السَّائرين في موكب الحضارة سيجعلوننا في ذيلها بلا شفقة ولا رحمة، فالطفل الذي تحرمه من الهاتف النَّقال واستعماله؛ خوفًا عليه وحمايةً له، ونجنبه استعمال الحاسوب أو

---

* كاتب وناقد – الجزائر.

(١) تُنسب هذه المقولة إلى الإمام عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، ومهما يكن من أمر صحتها أو عدمه، فمؤدَّاها صحيح، وهي مجرّبَة في الواقع

اللَّوح الرَّقمي المزوَّد بالإنترنت للسَّبب نفسه، فإنَّه يلجأ إلى استخدام تلك الأجهزة لدى أصدقائه أو أقاربه، أو حتى استعارة من رفقاء السُّوء، ويكون الأمر أسوأ حينئذٍ.

تقول الأستاذة نجاح محمد النقيب في دراسة لها بعنوان: (التكنولوچيا الذكية وتربية الأبناء):

"في دراسة أعدَّها معهد الدراسات التربوية بجامعة القاهرة، وُجِد أن تأثير الوالدين والأسرة في تربية الأبناء وتوجيه سلوكياتهم وتوجهاتهم الفكرية، تراجع من 70 بالمائة إلى أقل من 40 بالمائة، في الفترة التي انتشرت فيها الإنترنت ووسائل الإعلام المختلفة، وأرجع الباحثون ذلك إلى الاختلاف الفكري والثقافي بين جيل الآباء المتمسك بنظريات التربية التقليدية والأبناء الذين يُعدُّون أكثر ثقافة وانفتاحًا واطِّلاعًا.

الدكتور محمود منسي، أستاذ علم النفس التربوي بجامعة الإسكندرية، أشار إلى أن "اتصال الأبناء بالتقدُّم التكنولوچي أحدث فجوةً بين عقلية الأبناء والآباء، حيث أصبح النشء لديه قدرة أكبر على التجاوب مع التكنولوچيا، والتعامل مع الكمبيوتر والإنترنت. وإنَّ أساليب التربية والتنشئة الاجتماعية التقليدية لن يصلح تطبيقها مع الأبناء، موضحًا أن حل معضلة التواصل بين الأجيال في هذه المرحلة يتطلب التحلِّي بروح الحوار والتواصل، بدلًا من التربية الاستبدادية، واعتبار الطفل مجرد مُتلقٍّ للأوامر"[1].

فالأوفق في هذه الحالة أن يرافق الآباء والأمهات أبناءهم لتجربة الوسائل التكنولوچية، واستخدامها فيما ينفعهم ويُعينهم في دراستهم وتنمية ثقافتهم ومعرفة الحياة من حولهم، وجعل تلك الوسائل أداة بناء بدل أن تكون أداة هدم.

الوسائل التكنولوجية تفرض نفسها:

الوسائل التكنولوچية الحديثة اقتحمت علينا بيوتنا، وانتشرت بيننا بسرعة رهيبة، لم نتوقعها قبل عشرين سنة، وصارت واقعًا لا مفرّ منه، بل هو واقع محبَّب جالب لكثيرٍ من المنافع والفوائد التي تعمل على تطوير حياة الإنسان وتسهيلها. فالرجل الذي كان يسافر مئات أو آلاف الكيلومترات ليطمئنَّ على أهله أو أقاربه، وفي أحسن الأحوال يرسل رسالة قد تبقى في البريد

(١) دراسة منشورة على الشابكة بموقع الكنانة نيوز، بتاريخ ٢٣ فبراير ٢٠٢١م.

شهرًا كاملًا، صار يمكنه اليوم أن يُحادث من يحبُّ ومن يشاء صوتًا وصورة في أيَّة لحظة وفي أي مكان يريد.

المدارس الرقمية:

كثيرٌ من المدارس والمؤسسات التربوية اليوم أصبحت تخطط إلى توظيف الوسائل التكنولوچية الحديثة في منظومتها التربوية، فالتدريس عن طريق العارض الضوئي، وعن طريق الشاشات الكبرى، والحاسوب أو اللوح الإلكتروني الذي يوضع أمام طاولة التلميذ فيكتب عليه، ويبحث فيه، ويتلقى المعلومات بلمسات سريعة على غير أزرار يراها، بل هي ألواح ناعمة تنساب فوقها الأصابع برشاقة فترى العالمُ مصغَّرًا أمامها، كُلُّ ذلك بدأ يدخل في بيداغوجيا التعليم الحديث اليوم.

ولقد أسهمت جائحة كورونا في السنتين الماضيتين في تسريع هذا الأمر وإعطائه الأوليَّة القصوى، وظهر ما يُسمَّى بالسبورة الذكية واللَّوح الذكي الذي يُغنِي التلاميذ عن استخدام الكتاب، أو حتى عن الخطّ بالقلم، وأكثر من ذلك بدأ مفهوم الكتاب المطبوع نفسه يتغيَّر، ورغم أنَّه لا زال هناك عدد هائل من البشر يتمسكون بالكتاب الورقي، ويرون أنَّه لا غنى عن الكتاب الورقي الذي تلمسه بيدك وتشمُّ رائحته، وتداعبك صفحاته البيضاء أو الصَّفراء، رغم كلِّ ذلك فإنَّ مفهوم الكتاب بدأ يتغيّر.

الكتاب الرَّقمي في أشكاله المختلفة سواء أكان في صيغة (وُورْد أو pdf) أو أي شكل آخر من الأشكال الرقمية الأخرى سيحلُّ حتمًا محلَّ الكتاب الورقي المطبوع، وكلُّ ميزات الكتاب المطبوع ورقيًا والتي يتفاخر بها من يتعصَّبون إلى هذا النوع من الكتب ويَعضُّون عليها بالنواجذ؛ هي موجودة أيضًا في الكتاب الرقمي (الإلكتروني)، وبميِّزات أفضل وأكثر دقةً وأيسر محملًا.

فالطفل الذي يعاني بالأمس من ثقل المحفظة التي تَقِرُ ظهره أو تنوء بها يداه، فإنَّه يكفيه اليوم أن يحمل لوحًا رقميًا صار زهيد الثمن سهل الاقتناء، لا يكلِّف المؤسسات التربوية ما تكلفه الكتب، وهو إلى جانب ذلك يمكنه وصل التلميذ أو الطالب بالمؤسسة التربوية وبأستاذه مباشرةً وهو جالس في بيته، فلا ثلج يقطع الطرقات ويُعيق عن الدراسة ولا حرّ أو مطر أو زحمة مرور يعرقل التمدرُس المنتظم.

وهنا ميزة أخرى يمكن أن تُضاف إلى كلِّ ذلك، وهو إمكانية مشاركة الآباء والأمهات في متابعة مسار أبنائهم الدراسي يومًا بيوم، ولحظةً بلحظة، والعمل على تذليل كلِّ الصعوبات لأبنائهم، ففي جائحة مثل وباء كورونا الذي اضطر كثيرًا من الناس إلى البقاء في بيوتهم، بسبب

الحَجْر الصِّحي، يمكن للتلميذ أن يواصل دراسته بكل سهولة ويُسر، لكنَّ الأمر – فقط – يحتاج إلى إرادة وتصميم وتضافُر الجهود.

مخاطر ومحاذير:

بطبيعة الحال كلُّ جديد فيه مخاطر وفيه سلبيات كما فيه فوائد وإيجابيات، ويمكن حصر مخاطر الوسائل التكنولوچية الحديثة في عدَّة نقاط رئيسة، وهي التي تجعل بعض الناس يحذِّرون من استعمال هذه الوسائل بسببها، ويشددون النَّكِير على مَن ينغمس في استخدامها أو ترك أبنائه بين أحضانها تشكِّل لهم شخصياتهم وتبني لهم الواقع الافتراضي، واقعًا خياليًا يبعدهم عن الواقع الحقيقي، بل من الإسراف والشَّطَط أن نسميه واقعًا بل هو وَهْم وسراب بقيعة، ومن التسامح والتجاوز كثيرًا تسميته (عالم افتراضي)، وهو بعيد كلَّ البُعد عن الواقع.

هذه النقاط هي:

١ – الانعزال عن الحياة والنّاس:

وهذا أمر مُشاهَد ومَعِيش ولقد رأينا في مجتمعنا وفي أسرنا كيف يُقبل الأطفال على الهواتف النقَّالة والألواح الرقمية بشكل جنوني، حتى يُصابون بالخرَس فلا يتكلمون وبالذهول فلا يلتفتون إلى ما حولهم، ويأخذ ذلك من حياتهم ساعاتٍ طويلة لا يشعرون بمرورها. وبدأت تظهر بينهم وبين آبائهم وأمهاتهم فجوة عميقة، وتباعُد يتسع شيئًا فشيئًا في كلِّ يوم.

٢ – إدمان الألعاب الإلكترونية:

وهي أكثر ما يشوِّق الأطفال الصغار في الوسائل التكنولوچية الحديثة بكل أنواعها، فالطفل تجذبه اللعبة الإلكترونية ويتعلَّق بها، ويعدُّها جزءًا لا يتجزأ عن حياته ويمكنه أن يستغني عن الأكل والشرب لفترات طويلة ولا يستغني عن هذه الألعاب، وبعض هذه الألعاب قاتلة، قد تدفع الطفل إلى ارتكاب الجريمة، أو التعرض لها وتعريض حياته إلى الخطر الأكبر، مثل لعبة الحوت الأزرق التي ظهرت قبل بضع سنوات ماضية، وتسبَّبت في كثيرٍ من عمليات الانتحار عند الشباب، لكن الأخطر من ذلك أن تجعل هذه الألعاب من الطفل شخصًا مُتوحِّدًا، ذاهلًا عن محيطه غائبًا عن العالم من حوله.

٣ – الانصراف عن الدراسة والتحصيل العلمي:

وهذا الأمر لا يقتصر على الأطفال الصغار وحدهم بل يتعداهم إلى طلبة الجامعة، والمنشغلين بالدِّراسات العليا، ونجد أكثرهم لا يصبرون على المطالعة أو القراءة الهادئة المفيدة لفترة قصيرة،

ولا يلتزمون بالبحث العلمي إلا في جانبه الشكلي، فتجد طلبة الدكتوراه مثلًا، يحشون رسائلهم بالنُّقُول والشواهد الطويلة ولا تجد لهم في ما يكتبونه وينجزونه من أعمال علمية (!!) لمسةً خاصَّةً في رسائلهم، إلا بالقدر الضئيل الذي اضطروا إليه اضطرارًا وإلا لما خطُّوا بالقلم ولا كتبوا حرفًا واحدًا.

٤ – التأثر بالثقافة الغربية:

والثقافة الغربية التي نقصدها هنا هي التي تُنافي القيَم والأخلاق مما تتحلَّى به مجتمعاتنا العربية الإسلامية، بحيث تصبح تلك الثقافة مُشكِّلًا أساسيًا لشخصية الطفل وهو في أخطر مراحل نموِّه العقلي والفكري والجسدي، وربما أقرب الأمثلة على تلك الثقافة، هي ظاهرة قصّات الشعر الهجينة التي لا ذوق ولا جمال فيها، وظاهرة لبس الثياب الممزقة أو المصبوغة بألوان توحي بأنَّها متسخة وقديمة.

حلول ناجعة وأساليب نافعة:

الخوف من التكنولوچيا يوقعنا في خطر معاداتها، ويُبقينا شعوبًا تنتمي منذ أزيَد من سبعين سنةً إلى دول تُسمّى (الدول التي في طريق النموّ)، وقد أحسن من قال، منذ رأت دولنا الاستقلال وهي في طريق النمو، فإمّا أنّ الطريق طويل جدًا أو أننا أخطأنا الطريق..!

الحلُّ ليس بمعاداة التكنولوچيا والتمسك بالأساليب والوسائل القديمة؛ وإن كنَّا نعدُّها آمنةً ومناسبةً أكثر لتربية أبنائنا، وإنما أفضل مخرَج من هذه المعادلة الصّعبة هو حلُّها بالطريقة الصحيحة وفق القواعد العلمية السَّليمة؛ أي أن نتكيَّف مع الصناعة الرقمية الجديدة ونوظفها لتسهيل حياة الإنسان، وأن نجعل منها عنصرًا فاعلًا في تربية الجيل الجديد.

كيف ذلك..؟

السِّر بين يدَي الأمِّ وفي أحضانها..

الأمُّ مدرسةٌ إذا أعدَدْتَها * * أعددتَ شعبًا طيِّبَ الأعراقِ

الأم أكثر الناس التصاقًا بالطفل من غيرها من النَّاس، لاسيما في سنوات الطفولة الأولى، قبل الالتحاق بالروضة أو المدرسة، ويقع على عاتقها العبء الأكبر في تكوين النواة الصُّلبة لتربية الطفل، ولمساتها الأولى هي التي تبقى تعمل في توجيهه أو إضافة أي تعديل أو جديد لشخصيته؛ ومن ثمّة كان لزاما على الأمِّ أن تكون واعية بهذه المهمّة الأساسية والحاسمة في حياة الأطفال،

فإذا كانت الأمّ تدرك مدى فاعلية التطور العلمي والتكنولوچي في رسم مسار حياة الأبناء، فإنَّها بلا شك ستعمل على تكيُّف أبنائها مع هذا الوضع، وتدفعهم إلى الاستفادة منه إلى أبعد الحدود.

يمكن أن تجعل الأم من الهاتف واللّوح الرقمي وسيلةً نافعةً في تربية الطفل، ومحفزًا له على إنجاز واجباته وفهم تعلُّماته المدرسيَّة بسهولة ويُسر، فالطفل يحبُّ هذه الوسائل ويُقبل عليها بشغف، وبدلًا من أن نحرمه منها كليةً أو نتركها له يفعل بها أو تفعل به ما تشاء، تقوم الأم أساسًا ثم الأب من بعدها على تنظيم أوقات الأطفال لاستخدام هذه الوسائل، بحيث لا تجور على وقته الذي ينبغي أن يقضيَه في حوار مفتوح مع أفراد العائلة ومع اللَّعب رفقة إخوته أو أصدقائه، تنظيم ذلك بطريقة مرنة من غير صرامة شديدة؛ يساعد الطفل على التفاعل مع هذه الأجهزة بشكل إيجابي.

يمكن للأم أن تضع برنامجًا يستخدم فيه الطفل الأجهزة التكنولوچية في ممارسة اللهو والمرح من خلال مواقع الشابكة التربوية الآمنة، ومن خلال الرقابة الذّكية، ويمكن أن تقوم الأم بتوجيه أبنائها من أجل مراجعة دروسهم من خلال مواقع اليوتيوب المفضّلة لديهم، وفهم ما لم يتمكنوا من فهمه في المدرسة، وقد كانت لي عدّة تجارب في ذلك، أذكر منها نموذجين على سبيل المثال:

النموذج الأوّل: ابني الصَّغير (11عامًا) وجد صعوبة في مواكبة تسارُع العملية التعلُّمية، عند انتقاله إلى المرحلة المتوسطة من التعليم، ولم يكن عندي الوقت الكافي لأتابع معه أكثر من عشر مواد دراسية صار يتلقاها في هذه المرحلة مع عددٍ كبيرٍ من الأساتذة لم يتعوَّد عليهم، في حين كان في مرحلة الابتدائي مع أستاذ واحد أساسي هو أستاذ اللغة العربية، وأستاذ الفرنسية الذي يتلقى عنه ساعات محدودة في الفرنسية، فقمت باختيار مجموعة من القنوات على اليوتيوب ووجَّهت ابني إليها لكي يعيد من خلالها مراجعة دروسه، ورافقته فيها لفترة محدودة حتى اطمأننت إلى حُسْن استخدامه لها، وبعد فترةٍ صار يتعامل معها بسهولة ويُسر وحماس كبير، واستطاع أن يكسر جُلَّ العقبات التي اعترضت سبيله في المرحلة الأولى من التعليم المتوسط، وحقق نتائج مُرضية في الاختبارات. وقد رافق هذه العملية بعض الحوافز المادية والمعنوية في الوقت نفسه، ومنها أن أترك له حُريَّة استخدام الهاتف النقَّال لفترة محدَّدة والدخول إلى بعض البرامج الترفيهية التي عاينتها مسبَّقًا.

أما **التجربة الثانية**، فكانت مع ابني الثاني الذي كان مقبلًا على الامتحان في شهادة

البكالوريا، وتعرَّض لظروف قاهرة منعته من الانتظام في الدراسة لعدَّة أشهر، ولم يبقَ على الامتحان إلا أقلُّ من ثلاثة أشهر، فقام بنفسه بوضع برنامج صارم لمراجعة المواد المبرمجة في الامتحان، والتي لم يتلقَّ فيها أية دروس في تلك السنة على أيدي الأستاذة في الثانوية، لكنه بالانضباط والإصرار ومن خلال متابعة دروس اليوتيوب وبعض المواقع التعليمية الرصينة، تمكَّن من دخول الامتحان والنجاح في البكالوريا بعد أن تفرَّغ للدراسة مدّة شهرين و20 يومًا فقط، وكان عملًا يشبه المعجزة..!

الأم والأب يمكنهما توظيف الوسائل التكنولوچية بطرق مختلفة، وحسب ظروف البيئة والأسرة، ويمكن دفع الطفل إلى البحث عمّا يخطر بباله من أسئلة في مُحرِّكات البحث المعروفة مثل غوغل والياهو وغيرها، وترك الطفل يكتشف بنفسه متعة الحصول على الأجوبة المختلفة والمتعددة بطرح الأسئلة في محركات البحث هذه.

والأهمُّ من ذلك هو الاستخدام الأمثل لوسائل التكنولوچيا من قِبل الوالدين، فالأمُّ التي تقضي الساعات الطويلة مع وسائل التواصل الاجتماعي دون الالتفات إلى أبنائها من حولها، فإنَّ الأبناء سيقتدون بها ويسعون إلى استخدام هذه الفضاءات في اللهو والعبث وتزجية الوقت، لكن إذا قام الوالدان باستخدام هذه الفضاءات بشكلٍ معقولٍ وبطريقة مفيدة، فسيقتدي أبناؤهم بهم في ذلك وسيكونون مقنعين أكثر.

يقول الأستاذ جمال نازي في مقال له بعنوان: (التكنولوچيا والأطفال.. نصائح تساعد الأهل بجعلها "صحية") على موقع العربية نت:

"تجتذب التكنولوچيا الآباء والأمهات بنفس القدر الذي تستقطب به الأطفال، حيث يتحققون من هواتفهم كل حين ويستغرقون في العمل لساعاتٍ متأخرةٍ ويتصفحون الأجهزة المحمولة واللوحية بشكلٍ متكرر. كما يستخدم البعض الأجهزة أمام أبنائهم أثناء الحركة والمشي لكتابة رسالة أو إجراء مكالمة. ومن المحتمل ألَّا يقوم الأطفال بتقليد سلوك البالغين فحسب، بل يشعرون أيضاً بالرغبة في التنافس معهم لشد اهتمامهم.

ويجب على الآباء والأمهات أن يقدموا القدوة والنموذج المثالي لذويهم من مختلف الأعمار، عن طريق الالتزام بعدم استخدام الهاتف والجهاز اللَّوْحي في تلك الأوقات:

- عند توصيل الأطفال من وإلى المدرسة.
- بعد العودة من العمل إلى المنزل.

– أثناء الوجبات الغذائية، بما في ذلك عند تناول الطعام بالخارج.

– خلال نزهات مثل الرحلات إلى الحديقة أو حديقة الحيوان، أو العطلات عندما يجب أن يكون التركيز على وقت الأسرة.".

وبالمقابل، يمكن أن نعلم الأطفال المميزين من سن 10 إلى 15 سنة أهمية استخدام الوسائل التكنولوچية في حياتنا العملية، مثل عملية تسديد الفواتير (الهاتف/ الكهرباء / الاشتراك في الإنترنت) من خلال المواقع الرقمية للمؤسسات المشرفة على هذه الخدمات.

كما يمكننا أن نرافقهم في قراءة كتاب رقمي مُشوِّق، أو الاستماع له مقروءًا على جلسات منتظمة، ومناقشة مضمونه معهم، ومشاهدة بعض البرامج المشتركة على الحاسوب أو الهاتف وأخذ رأيهم فيها.

ويمكن للمدرسة أيضًا أن تنسِّق مع الأسرة من أجل وضع برنامج مدروس ومنضبط، لكيفية استفادة الأطفال من وسائل التكنولوچيا الحديثة في عدَّة مجالات أساسية، منها (التعلُّم/ الثقافة/ الترفيه والتسلية) على أن يكون الترفيه والتسلية من الأولويَّات وليس من الكماليات، كما كان يُنظر إليه سابقًا، فهو يلبِّي حاجة نفسيَّة مُلحَّة لدى الطفل، وإذا حدث هذا التكامل بين المؤسسة التربوية والأسرة في توظيف التكنولوچيا الحديثة تغيَّرت تلك النظرة العدائية لهذه الوسائل التي غزت حياتنا اليومية، وتصبح حينها صديقًا مساعدًا بدلًا من أن تكون وسيلة هدم وإفساد لجيلٍ بأكمله.